الخطاب الإلهي للأنبياء والرسل في العهد القديم
(خطاب اللّه لآدم وإبراهيم إنموذجاً)

الباحث. دريد عبد مزيعل الظاهري
أ.د. حازم عدنان أحمد
جامعة بغداد / كلية العلوم الإسلامية / قسم العقيدة والفكر الإسلامي
www duraid77abd@gmail. Com

ملخص:

مَن يتأمَّلَ الخطابَ الالهي في أسلوبه وبلاغته، وفي تصريفه وتنويعه، يظهر له بوضوح شمولية ذلك الخطاب لجميع أصناف المخاطَبين، على اختلاف أجناسهم، وأمْكِنَتِهم، ومِلَلِهم. حيث إنَّنا إذا نظرنا إلى الخطاب البشري مهما بلغ مِن بلاغتِه وروعتِه، وبيانِه وفصاحتِه، فإنَّه لا يُعنَى بجميع الجوانب الإنسانية في ندائِه، مِن حيث مخاطَبتُه للعقل والعاطفة معًا، أو مخاطَبتِه للعامَّة والخاصَّة كذلك، بل إنَّه ربَّما يُعنَى بِجانب على حساب جانب آخر، ولا يُقيم الميزانَ الحقَّ بيْنهما، ومِن ثمَّ فهو خطاب بشري يعتريه النقص والخطأ، ولا يصِل إلى ذروة الكمال أبدًا مهْما أوتي صاحبُه مِن الفصاحة والبيان.

بينما حينما نتدبَّر الخطاب الرباني ونستقْرئ آياتِ القرآن، – مثلًا– نرى أنَّه في نداءاته وتوجيهاته يتَّسِمُ بالشمول؛ حيث إنَّه لم يجعل نداءه إلى فئةٍ دون فئة، أو جنسٍ دون جنس، أو أهل دينٍ دون غيرهم. بل شمل ذلك الخطابُ أصنافَ العالمين مِن المخاطَبِين على تنوُّع أجناسهم وألسنتهم وأديانهم التي يَدينون بها.

وهنا نقِف وقفةً قرآنيَّةً مع مجالات الخطاب القرآني وشموليَّته لأصناف المخاطبين، على تنوُّع أجناسهم وألسنتهم وأديانهم التي يَدينون بها. فكان بذلك أعظمَ الهداية والإرشاد للقلوب الغافلة، والعقول الحائرة، والنفوس الضالَّة.

الكلمات المفتاحية: (الخطاب الإلهي، الأنبياء والرسل، العهد القديم).

The Divine Speech to the Prophets and Messengers in the Old Testament
(God's Speech to Adam and Abraham as a Model)

Duraid Abd Muzail Al-Dhaheri
Dr. Hazem Adnan Ahmed
University of Baghdad / College of Islamic Sciences
Department of Doctrine and Islamic Thought

Abstract:

Whoever contemplates the divine discourse in its style and rhetoric, and in its conduct and diversification, will clearly see the inclusiveness of that discourse to all types of addressees, regardless of their genders, places, and sects. Since if we look at human speech, no matter how eloquent and magnificent it is, and its clarity and eloquence, it is not concerned with all the human aspects in its appeal, in terms of addressing the mind and emotion together, or addressing the public and the private. Likewise, rather, it may mean one aspect at the expense of another, and does not establish the right balance between them. Hence, it is a human discourse that is full of imperfection and error, and never reaches the height of perfection, no matter how eloquent and eloquent its author is. Whereas, when we contemplate the divine discourse and read the verses of the Qur'an, for example, we see that it is comprehensive in its appeals and directives. Since he did not make his appeal to a group without a group, or a gender without a gender, or the people of a religion without others. Rather, that discourse included the types of the worlds of addressees, despite the diversity of their races, tongues, and religions that they profess. Here we stand a Quranic pause with the areas of Quranic discourse and its comprehensiveness to the types of addressees, despite the diversity of their races, tongues and religions that they profess. Thus, it was the greatest guidance and guidance for heedless hearts, confused minds, and lost souls.

Keywords: (Divine Discourse, Prophets and Messengers, The Old Testament).

مقدمة :

من المجالات المتعددة التي خاطب الله سبحانه وتعالى بها الخليقة هو خطابه إلى الأنبياء والرسل والى عامة البشر وعن طريق النبوات المتعاقبة بدءً من نبي الله آدم (عليه السلام) وحتى رسولنا الكريم محمد (ﷺ) وعلى مدار مساحة واسعة من التأريخ تم توصيل ذلكَ الخطاب الإلهي إلى الإنسان لكي يقوده إلى الصراط المستقيم من خلال دعوتهم إلى الإيمان بالله سبحانه وتعالى وتوحيده والإيمان بملائكته ورسله

واليوم الآخر ودعوتهم إلى أصول الخير لتحقيق السعادتين في الدنيا والأخرة، وفي بحثنا نسلط الضوء على نماذج مختارة من تلك الخطابات، التي هي الخطابات الإلهية للأنبياء والرسل في العهد القديم، ومن جملتها: (الخطاب الإلهي لآدم وإبراهيم (عليه السلام)) كي تكون إنموذجاً لدراستنا، وسنقف بالدراسة على أهم ما جاء في تلك الخطابات بالعرض والتحليل والنقد، لما جاء به العهد القديم من كلام الله الذي لا تشوبه شائبة ، وما أيدته سفر المزامير:

[أقوال الرب خالصة لا شائبة فيها كالفضة المنقاة والمصفاة سبع مرات في بوتقة محماة].[١][أقوالكَ ممحصة نقية وعبدكَ أحبها].[٢] [كل كلمة من كلمات الله صادقة وهو ترس للاذنين به].[٣]

لقد تحدثت نصوص العهد القديم في أماكن متفرقة عن تقديس وتنزيه الله سبحانه وتعالى وهذا ما يليق بجلاله وعظمته فقد وردت نصوص عدة تؤيد ذلك التعظيم والتقديس، ومنها ما ورد في سفر التثنية : [أسمعوا يا بني إسرائيل : الرب إلهنا رب واحد . فأحبوا الرب إلهكم من كل قلوبكم ونفوسكم وقوتكم] [٤] , ومن تلك النصوص ما نصت على عدم رؤية الله سبحانه وتعالى إذ ذكر في سفر أشعيا : [حقاً أنت الله محتجب يا إله إسرائيل] [٥] , وما خاطب به الله نبيه موسى (عليه السلام) : [ولكنك لن ترى وجهي لان الإنسان الذي يراني لا يعيش] [٦] , وكذلك ما أيدته نصوص العهد القديم بعدم وجود مماثلة لله سبحانه وتعالى وهذا ما حكاه نبي الله سليمان (عليه السلام) في خطبته إذ ورد : [وقال : أيها الرب إله إسرائيل ليس إله نظيرك في السماء والأرض] [٧] , وغيرها من الصفات الأخرى التي تدعوا إلى تقديس وتنزيه الله سبحانه وتعالى عن الجسمية والنقص والتشبيه .

غير أن هناك نصوصا تناقض ما تقدم، وتنتهج نهجا مغايراً لما حملته تلك النصوص، تحدث عن الله فجعلته كائناً بشرياً له صفات البشر، من نقص وتشبيه.

يقود الامر الى اصطباغ نصوص العهد القديم بصبغة التناقض، دل ذلك على اثبات حجم الدخيل في تلك النصوص.

ولأهمية الخطابات الالهية لأنبيائه ورسله والصور التي تجسدت بها تلك المخاطبات، ولإبراز نصوص العهد القديم في توصيف تلك الصور، ارتينا كتابة هذا البحث، وتقسيمه ضمن المباحث الآتية:

المبحث الأول: الخطاب الإلهي لآدم (عليه السلام) :

في البدء لابد لنا أن نتسلسل في سرد الخطابات الإلهية للأنبياء والرسل في العهد القديم كون آدم (عليه السلام)، هو الأب الأول الذي صدرت منه البشرية وفيما يأتي استعراض لبعض هذه النصوص:

[وأمر الرب الاله آدم قائلاً كل ما تشاء من جميع أشجار الجنة ولكن إياك أن تأكل من شجرة معرفة الخير والشر لأنك حين تأكل منها حتماً ستموت].(٨)

أن السلطان لله على الإنسان باعتباره مخلوقاً له عقل ويستمعُ بحرية الإرادة فأن الرب الاله يوصي الإنسان الذي يعد الأن أباً وممثلاً للبشرية كلها لكي يتسلم الشريعة كما تسلم الطبيعة منذ فترة بسيطة وكما أعطيت الوحوش الغريزة الخاصة لكل منها كذلكَ أعطي الإنسان القدرة على أداء خدمة موافقة العقل ومن ثم لم يتسلم الأوامر من الخالق فقط بل تسلم الأمر من الملك والسيد وأن التأثير الخاص لهذا السلطان الذي حتم على آدم التأكيد على سروره الراهن وذلكَ بالمنحة التي أعطاها له (من جميع شجر الجنة تأكل أكلاً) وهذا لا يعد مجرد سماح بالحرية بالنسبة لآدم بل يمثل تأكيداً بالحياة المعطاة له حياة أبدية إذا أطاع الوصية. (٩)

وكذلكَ كان للسلطان تأثيراً آخر على آدم وهو اختبار طاعته فكانت عقوبة عدم الطاعة هي الحرمان من كل سعادته ، لتعلم يا آدم إنك الأن تسلك حسناً وقد وضعت في الجنة تحت الاختبار كن يقظاً ومطيعاً لتنعم بالسعادة إلى الأبد والا سوف تكون في بؤس بقدر ما أنت عليه الأن من سعادة حيث اختبر آدم بوصية محددة إلا يأكل من شجرة معرفة الخير والشر فأن تلك الوصية نابعة من مشيئة المشرع وحده فآدم لم يعرف الشر ومن ثم فهو يختبر بشيء لا يعد شراً لأنه ممنوع فقط ولان المنع من الأكل موجه ضد رغبات الجسد والعقل اللذان يعدان من المصادر الكبرى للخطيئة وهذا المنع يكبح الشهوات واللذات الحسية وطموحه في إشباع فضوله. (١٠)

وتصور لنا الموسوعة الكنسية في تفسير هذا النص : لقد أعطى الله النباتات وثمار الجنة والأشجار طعاماً للإنسان , ولكن الله أعطى وصية للإنسان بأن يأكل من شجرة معرفة الخير والشر إظهاراً لاهتمامه بحرية الإنسان واختباراً لطاعته ونبوته له , فرغم أبوة الله ومحبته التي لا تحد نحو الإنسان أعطاه الحرية أن يبقى معه ويتمتع بكل نعمة أو يرفض كلامه ويأكل من الشجرة التي نهاه عنها وتنبيهاً لخطورة مخالفة الله والانفصال عنه قال له إنه إن أكل من الشجرة سيموت.(١١)

ويتبين من خلال استعراض بعض آراء المفسرين لهذا النص عدة أمور فمنها طاعة الله سبحانه وتعالى واختبار تلكَ الطاعة مع تحمل آدم المسؤولية بتسلم الشريعة كما تسلم الطبيعة وترويض وتهذيب النفس على كبح الشهوات والملذات الحسية والنفسية .

ومع هذا الاختبار الإلهي لنبي الله آدم (عليه السلام) وتحذيره بعدم الأكل من الشجرة يجد الباحث جانب من التناقض والتطاول على الذات الإلهية فقد نسب هذا النص الكذب إلى الله (سبحانه وتعالى) بقوله: [فقد قال الله : لا تأكلا منه ولا تلمساه لكي لا تموتا][١٢], فكيف يتوعد الله آدم وزوجه بالموت حينما يأكلان من الشجرة (شجرة معرفة الخير والشر) وفي نص سابق من السفر نفسه في الإصحاح الأول يخاطبهم الله : [وباركهم الله قائلاً لهم " اثمروا وتكاثروا وإن يملئوا الأرض وأخضعوها "][١٣] ، فإذا كان الله قد أمرهم بأن يثمروا ويتكاثروا وأن يملئوا الأرض فكيف له أن يمنعهم من الأكل من الشجرة حتى لا يعاقبهم وينزلهم إلى الأرض .

ويستمر سفر التكوين بسرد قصة آدم وزوجه وحوارهم مع الله وكيف خاطبهم الله قائلاً : [ثم سمع الزوجان صوت الرب الاله ماشياً في الجنة عند هبوب ريح النهار , فأختبأ من حضرة الرب الاله بين شجر الجنة فنادى الرب الاله آدم " أين أنت " فأجاب : " سمعت صوتك في الجنة فاختبأت خشية منك لأني عريان " " من قال لك إنك عريان ؟ هل أكلت من شمر الشجرة التي نبهتك عنها ؟ " فأجاب آدم : إنها المرأة التي جعلتها رفيقة لي هي التي أطعمتني من ثمرة الشجرة فأكلت " فسأل الرب الاله المرأة " ماذا فعلتِ ؟ " فأجابته " أغوتني الحية فأكلت "].[١٤]

ويصرح وليم مارش في السنن القويم في تفسيره لهذا النص مبتعداً عن تنزيه الاله عن كل نقص إذ يذهب بصرف المعنى عن الدلالة الحقيقية له وقوله : " وسمعا صوت الرب الاله ماشياً في الجنة " وهذا يدل على أن الله كان يظهر لهما في الفردوس ويخاطبهما وإنهما كانا في خير نعمة وقربى من ربهما قبل أن يعصياه ولعله كان يظهر لهما في هيئة ملاك " عند هبوب ريح النهار أي عند انخفاض الحر وأخذهما في التنزه فكان رب الجنة يعاشرهما في ذلكَ الوقت المناسب للعشرة ".[١٥]

وقد اختبأ آدم وأمرأته من وجه الرب الاله كان نتيجة المعصية فهربهما من الله كان أمراً جديداً فأنهما كانا قبل السقوط يسران بالمشي معه ولكنه لم يتركهما كما تركاه بل طلبهما , وعند سؤال الرب : أين أنت كان للاستفهام وهنا للتوبيخ ولحمل المسؤول على الإقرار عن علة ما أتاه لا لطلب الفهم فكأنه تعالى قال له يا آدم قل لي لماذا هربت مني بعد أن كنت تسرع إلي سروراً تلقائي , وقوله : " لأني عريان فاختبأت " هذا جواب سؤال عن العلة لا جواب عن المكان والذي جعل عريه علة الهرب من الله وعصيانه فأنه قل ذلكَ كان يلاقي ربه بلا خجل ولا خشية وقد نبه الله بهذا ضمير آدم وجعله يشعر بنقصه وإن سوء حالته نتيجة عمله.[١٦]

وقوله " هي أعطتني " أي أكلت إطاعة لمن خلقتها لي ولم يشعر آدم بما كان عليه من التكليف والمسؤولية وما عليه من الواجبات لمن خلقت له معيناً وأنه كان يجب أن يحرسها ويساعدها على التجربة " فقالت المرأة الحية أغرتني " جواب حواء أحسن من جواب آدم لأن فيه اعترافاً بأنها خدعت وضلت وتعدت وصية الله , وفي جواب آدم أنه فعل ما كان يجب عليه لحواء من الطاعة والتسليم.(١٧)

وقد ذكرت الموسوعة الكنسية لتفسير العهد القديم بأن الشيطان قد دخل في الحية فصار ذكاء وحكمة أكثر من كل الحيوانات التي خلقها الله فجميع الحيوانات ليس لها عقل ولا قدرة على النطق ولكن استطاعت الحية بالشيطان الداخل فيها أن تجذب الإنسان بالحكمة الشريرة إلى الخطيئة , ويلاحظ أن الحية ذهبت إلى حواء وليس آدم لان حواء هي معينة آدم وأنيسته فهي أقرب مخلوق إليه ويكنها التأثير عليه فعلاقة آدم بامرأته وتعاطفه معها ساعد على سقوطه في الخطيئة , وبكلام الشيطان تحركت الشهوة في قلب حواء فرأت الشجرة وثمارها المحرمة إنها جميلة وشهية ومفرحة مع أنها لم تكن تراها هكذا من قبل وذلكَ لقبولها الحوار مع الشيطان.(١٨)

وتوضح الموسوعة الكنسية لتفسير العهد القديم : " للأسف لم يعترف آدم بخطيئته بل على العكس نسب الخطأ لحواء وبرر نفسه ، وهو بهذا ينسب الخطأ أيضاً إلى الله لأنه هو الذي خلق له حواء , وكذلكَ المرأة لم تعترف بخطيئتها بل نسبت الخطيئة إلى الحية التي خدعتها وهي بهذا أيضاً تنسب الخطأ إلى الله الذي خلق الحية ".(١٩)

فعدم الاعتراف والشعور بالخطأ فكل يبرر لموقفه بلا إقرار بالذنب وبلا أوانه للنفس ومحاولة إلقاء التبعية على الآخرين فيها عدم محبة لهم فآدم يرجع بألقائه اللوم على الله كان لا يتمتع بلياقة الحديث مخاطباً إياه (المرأة التي جعلتها معي هي أعطتني).(٢٠)

ويبدو للباحث من خلال استعراضه لهذا النص أن هناكَ إساءة وإسقاط للصفات البشرية على الذات الإلهية وعدم تنزيه الاله فالرب في سفر التكوين يمشي في الجنة وتسمع أصوات قدميه ويختبئ منه آدم وسط أشجار الجنة فلا يراه ويستنتج استنتاجاً أن آدم قد أكل من الشجرة ويقوم الرب بنداء آدم وزوجه عند أكلهما من الشجرة في الجنة فيعاتبهما على ذلكَ فهل أن الله سبحانه وتعالى العليم في كل شيء يخفى عليه ما أكل آدم وزوجه ؟ وهذا سلب لصفة من صفات الله سبحانه وتعالى وهي صفة العلم .

وأما شراح العهد القديم في تفسيرهم لهذا النص فقد ذهبوا إلى إلقاء اللوم على الله وذلكَ أن نبي الله آدم يلقي بالمسؤولية على حواء والتي تلقيها بدورها على الحية بل أن كلام آدم حتى وهو يلقي باللائمة على المرأة فأنه يتضح من كلامه بأنه يلقي اللوم على الرب نفسه وهو يخاطبه قائلاً : (المرأة التي

جعلتها معي هي التي أعطتني من الشجرة فأكلت) بل أن العملية كلها ليست فيها آية جريمة سوى أن الحية دلت الإنسان على ما فيه خيره وهو (معرفة الخير والشر) وهو بدوره سعى إلى ذلكَ الخير هو وزوجه وبمقتضى ذلكَ أصبحت العقوبات التي وقعت على الرجل والمرأة والحية هي ظلم من الله عليهم دونَ أن يعترفان بخطئهما ويقران بذلكَ الذنب وهذا ما ظهر واضحاً في تفسير هذا النص عند مفسري العهد القديم ...

وبحسب ما ذكره سفر التكوين بأن الحية قدمت خدمة لنبي الله آدم وزوجه والبشرية من بعدهم لأنها دلتهم على الشجرة التي يصيران بعد الأكل منها كالله عارفين الخير والشر وهذا ما أيده كلام الرب الاله فهل أن الله فضل أن يكون رب لجاهلين لا رب عارفين وحرص على البقاء بتجهيل آدم وزوجه وهل أن الحية بهذا التصرف أصبحت عدوة للرب وهل هذا النص بمفهومه يدعوا البشر إلى الالتزام بأوامر الرب أم يدعوا إلى عصيانها ومخالفتها ؟

ويستمر سفر التكوين في الإساءة وتشويه صورة الاله من خلال الخطاب الإلهي لآدم بعد أن أكل من الشجرة وفرض العقوبة المستحقة له بسبب هذا الفعل وهذا ما سنجده واضحاً من خلال النص الآتي :[وقال لآدم : " لأنكَ أذعنت لقول امرأتكَ وأكلت من الشجرة التي نهيتك عنها فالأرض ملعونة بسببك وبالمشقة تقتات منها طوال عمرك شوكاً وحسكاً تنبت لك وأنت تأكل عشب الحقل بعرق جبينك تكسب عيشتك حتى تعود إلى الأرض فمن تراب أخذت والى تراب تعود " , ثم قال الرب الاله : " هو ذا الإنسان قد صار كواحد منا يميز بين الخير والشر وقد يمد يده ويتناول من شجرة الحياة أيضاً ويأكل فيحيا إلى الأبد فأخرجه من جنة عدن ليفلح الأرض التي أخذت من ترابها , وهكذا طرد الله الإنسان من جنة عدن وأقام ملائكة الكربيم وسيفاً نارياً متقلباً شرقي الجنة لحراسة الطريق المقضية إلى (شجرة الحياة)].[٢١]

ويوضح تفسير الكتاب المقدس لسفر التكوين : أن اللعنة هي الإبعاد من الخير وقد لعنت الأرض التي يأكل منها الإنسان بسبب خطيئته فبعد أن كانت سخية بالعطاء في خيراتها ومحاصيلها كانت راضية عليه أصبحت قاسية لا تعطيه إلا بالتعب المضنى والعمل الشاق إذ كان العمل في الجنة محاطاً باللذة والسعادة والراحة ولكنه بعد السقوط أصبح مقروناً بالتعب وعرق الجبين , فبعد أن كان آدم يأكل ما لذ وطاب من ثمار الجنة ولكن ظروفه في الدنيا جعلت أعشاب الأرض وبقولها الأطعمة الغالبة له , وبعد أن يقضي الإنسان حياته في التعب المتواصل تنتهي حياته بالموت وقوله (لأنك تراب) يشير إلى جسد الإنسان الذي خُلق من تراب الأرض حيث يعود من جديد إلى تراب الأرض الذي أخذ منه ويتحلل إلى عناصره الأولية.[٢٢]

وقد بينَ جاريس كروسلي في تفسيره لهذا النص : لم يكن الطرد من الجنة سوى البداية فقد صار الأن للبشر ميل شرير وطبيعة شريرة لم تكن لهم وقت الخلق فقد ظهرت لهم على شكل كراهية وعنف وعلى آدم وحواء أن يشاهدوا نتائج شرهما الفظيع وبعد عصيان الله صار الموت نافذ المفعول وصار الجسد البشري عرضة للفساد ولم تكن المعاناة على آدم وحواء وذريتهما فقط بل على الخليقة جمعاء .[٢٣]

ويستمر شراح ومفسرو العهد القديم في إصرارهم بعدم تنزيه الاله ونعته بصفات لا تليق بالذات المقدسة فقد ذهبَ متى هنري في شرحه لهذه الآية : وأما قول الله (هو ذا الإنسان قد صار كواحد منا عارفاً الخير والشر) : أن آدم وزوجه استحقا الخزي والعار أمام الله وقد قال هذا لإيقاظهما وإذلالهما ولكي يدرس معنى خطيئتهما وحماقتهما فلقد وضعهم الله في هذه الحيرة والارتباك ليستدرجهما إلى التخيير فالسبب الذي أبداه الله لطرده الإنسان من الجنة لم تكن خطيئته انه مد يده واخذ من شجرة المعرفة [٢٤] , فحسب , بل لئلا يمد يده ثانية ويأخذ أيضاً من شجرة الحياة [٢٥] , ويطوي نفسه ويملأه الغرور بأنه سوف يحيا إلى الأبد .[٢٦]

وقول الله " قد صار كواحد منا " فيها دلالة واضحة على أن هناك اكثر من إله فأن النص يوحي بأن الرب الاله لا يتحدث عن نفسه فقط بل يتحدث عن نفسه وعن آخرين مثله فأن الحديث موجه لهؤلاء الآخرين , وهو ما يؤكد بأن الاله موجود ضمن مجمع من الآلهة المتعددة ولدعم هذا الطرح وتأيده النصوص التي وردت في نفس السفر من الإصحاح الأول : [وقال الله نحمل الإنسان على صورتنا كشبيهنا] [٢٧] , وما ورد في الإصحاح الحادي عشر : [هلم ننزل ونبلبل هناك ألسنتهم] [٢٨] , وهذا ما أيده شراح العهد القديم في تفسيراتهم ومنهم :

ما صرح به وليم مارش في السنن القويم : وقول " نعمل الإنسان على صورتنا " , قد وردت بصيغة الجمع وقد استخدم العهد القديم لفظة (إلوهيم) دلالة على تعدد الاقانيم وتثليث الاقانيم الإلهية بل نرى أنه سر غامض من أسرار هذا السفر.[٢٩]

وكذلكَ من ذكره أنطونيوس فكري وتادرس يعقوب في شرحهم لهذا النص : " وكون الإنسان صار واحد منا , أي من الثالوث فهذه تعتبر نبوة عن تجسد المسيح الأقنوم الثاني فهو الذي تجسد وصار واحداً منا " [٣٠] ويبدو أن المتحدث هنا هو الثالوث إذ يقول " فصار واحداً منا من جهة معرفة الخير والشر ".[٣١]

لقد طرد الله آدم وزوجه من الجنة إلى الأرض العادية واستبعاده وكل نسله الخاطئ من سجل تلكَ الشراكة التي كانت مع الله حيث نعيم الجنة ومجدها فإبقاءه خارجاً وحرمه من كل رجاء في الدخول مرة ثانية لأنه أقام شرقي جنة عدن فرقة من " الكروبيم " [٣٢] الذين هم جيش الله وهم مسلحون بقوة رهيبة لا تقاوم لكي يحرسوا " شجرة الحياة " حتى لا يستطيع الإنسان الدخول خلسة أو عنوة فيأكل من تلك الشجرة وبعد ذلكَ أصبح من العبث بالنسبة له ولنسله أن يتوقعوا براً وحياة وسعادة على أساس العهد الأول لأنه كسر وأصبح غير قابل للإصلاح [٣٣].

ويلاحظ الباحث من خلال تتبع قصة نبي الله آدم (عليه السلام) في العهد القديم بأنها مضطربة ومشوشة مبتعدة عن تقديس وتنزيه الاله وقد خلص إلى بعض النقاط المهمة التي لا مناص من ذكرها ومنها :

- عند الحديث عن شجرة معرفة الخير والشر يفهم منها بأن الرب كان خائفاً من أمتلاك آدم للمعرفة وهذه أحدى إسقاطات الصفات البشرية على الذات الإلهية فالبشر بطبيعة الحال يحتكرون المعرفة باعتبار أن المعرفة قوة ويقلقون من امتلاك خصومهم لتلك المعرفة لان تضعف الذات وتنفع الخصوم , فكيف يخاف الله من المخلوقين بأن يمتلكوا تلك المعرفة وهل أن الله خلقنا ولم يرُد منا أن نميز بين الخير والشر ؟ وهل هو حريص على تجهيل الإنسان ؟
- يتبين من خلال سرد قصة آدم أن الله قلق وخائف من أن يأكل الإنسان من (شجرة الحياة) كما أكل من (شجرة معرفة الخير والشر) فيعيش إلى الأبد , فطرد الإنسان من جنة عدن وجعل حراسة على طريق الشجرة من قبل الملائكة (الكروبيم) ومعهم لهيب نار متقلب ما هي إلا دليل على خوف الله وخشيته من أن يأكل آدم من تلك الشجرة فيصبح كالله من الخالدين , فهل يُقبل هكذا تصور عن الله سبحانه وتعالى ؟ فسبحان الله عما يصفون .
- عدم الاعتراف بالذنب من قبل آدم وزوجه فكلاً يلقي باللوم على الآخر فآدم يلقي باللوم على حواء و حواء تلقي باللوم على الحية والنتيجة فأن نبي الله آدم يحل الرب المسؤولية في ذلكَ لأنه هو من جعل المرأة معه فأعطته من ثمر تلك الشجرة وهذا ما أيدته نصوص سفر التكوين .
- وجود اكثر من إله أو أشباه الاله وهذا ما ظهر واضحاً من خلال النصوص التي ذكرها الباحث : " قد صار كواحد منا " , " نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا " , " هلم ننزل ونبلبل هناك ألسنتهم " .
- أن فكرة الآخرة والحساب والجزاء بعد الحياة الدنيا لا وجود لها في قصة آدم (عليه السلام) ففي سفر التكوين يتبين أن الموت هو أعظم الشرور وهو النهاية إذ لا نجد ذكراً للآخرة فيها (لأنك تراب والى التراب تعود) .

- أن الله يراجع آدم وزوجه بعد أن أكلا من شجرة معرفة الخير والشر ولا يراجع الحية التي هي رمز الشيطان والتي كانت سبباً بخروج آدم وزوجه من الجنة فلا يرى الباحث دوراً بارزاً للشيطان في هذه القصة .
- أن العقوبات واللعن التي أوقعها الرب على آدم وحواء بسبب خطيئتهم والتي انزلوا بسببها إلى الأرض لم تكن من نصيبهم وحدهم بل شملت الأرض وذريتهما وشملت الخليقة من بعدهم جمعاء , وهنا يطرح تساؤل :

ما ذنب الأرض وذرية آدم وحواء والخليقة من بعدهم بتحمل اللعن والمشقة والعناء بذنب أرتكبه آباؤهم وقد دلت نصوص العهد القديم على أن لا يؤخذ الأبناء بجريرة الآباء وكما ورد في سفر حزقيال : [لا يعاقب الابن بإثم أبيه ولا الأب بإثم أبنه يكافئ البار ببره ويجازى الشريربشره] [٣٤].

المبحث الثاني : الخطاب اللهي لإبراهيم ومشورته لطرد (هاجر وإسماعيل)

ويستمر الله سبحانه وتعالى بخطاباته للأنبياء والرسل لتبليغ أوامره وأحكامه وفي هذا النص نسلط الضوء على خطابه لنبيه إبراهيم ومشورته له بطرد (هاجر وإسماعيل) , موضحاً في ذلك التحريف والزيادة التي تعرضت لها الأسفار المقدسة عند اليهود والإضافات المشيمة التي أضيفت إلى تلك الأسفار والتي أيدها سفر التكوين:

[ورأت سارة إن أبن هاجر المصرية الذي أنجبته لإبراهيم يسخر من ابنها إسحاق فقالت لإبراهيم " أطرد هذه الجارية وابنها فأن أبن الجارية لم يرث مع ابني إسحاق " فقبح هذا القول في نفس إبراهيم من أجل أبنه , فقال الله له لا يسوء في نفسك أمر الصبي أو أمر جاريتكَ وأسمع لكلام سارة في كل ما تشير به عليك لأنه بإسحاق يدعى لكَ نسل ... فنهضَ إبراهيم في الصباح الباكر وأخذ خبزاً وقربة ماء ودفعها إلى هاجر و وضعها على كتفيها ثم صرفها مع الصبي فهامت على وجهها في برية (بئر السبع) [٣٥] , وعندما فرغ الماء من القربة طرحت الصبي تحت أحدى الأشجار ومضت وجلست مقابله على بعد نحو مئة متر لأنها قالت " لا أشهد موت الصبي" فجلست مقابله ورفعت صوتها وبكت] [٣٦].

وقول بعض المفسرين لا نعلم ماذا قال إسماعيل إذ أنه يفهم من سياق الكلام أنه أرتكب شراً فظيعاً لأنه لو كان قد أرتكب مثل ذلكَ الشر لما كان قول سارة " أطرد هذه الجارية وأبنها" ويقبح في عيني إبراهيم جداً من أننا نتيقن إن سارة لم تقل له ذلكَ إلا لسبب كافٍ فأن القديس (بولس) شهد بأن إسماعيل أضطهد إسحاق ولا ريب في أن إسماعيل أغتاظ إذ منعه من الميراث ، وقول سارة " أطرد هذه الجارية "

وفي العبرانية (الأمة) و (الجارية) وهنا ضد الكره ، وقوله " بإسحاق يدعى لك نسل , أي أن إسحاق هو نسلك الخاص لان ورثه الموعد منه " (٣٧).

وأما أنطونيوس فكري فأنه يؤيد ما ذهب إليه صاحب السنن القويم وقوله : (يمزح ويسخر ويتهكم) ويرى المفسرون إن هذه الحادثة هي بداية اضطهاد أبن المصرية لإسحق وفي نهايتها أضطهد المصريون الشعب نسل إسحق لذلكَ قال الكتاب أبن المصرية ولم يقل إسماعيل وربما ما أغاض هاجر وإسماعيل بوصول وريث جديد لإبراهيم وهو ميراث روحي فلا يرثه إنسان جسدي بل إنسان روحي والإنسان الروحي ولد بوعد فورث من أبيه الإيمان وهو ابن الحرة (سارة) ، أما الإنسان الجسداني فهو ابن الجسد والشهوة وضعف الإيمان فورث من أبيه ضعف الإيمان ومن أمه العبودية فكان إنساناً وحشياً حيواني الغرائز يحيا حسب الجسد وهذا يمثله (إسماعيل) (٣٨).

وإن طرد الجارية وكأنها أمر موصى به وهذا ما حكاه العهد الجديد في الرسالة إلى مؤمني غلاطية [إنما ماذا يقول الكتاب " أطرد الجارية وابنها لأن آبن الجارية لا يرث مع آبن الحرة " إذن أيها الأخوة نحن لسنا أولاد الجارية بل أولاد الحرة] (٣٩).

وأما عبارة (لأنه بإسحاق يدعى لكَ نسل) لا تسمح بأي مجال للشك فيما يتعلق باختياراللهَ , إذ تفصح علانية حقيقة الاختيار كما وضحت أيضاً لإبراهيم أنه لا يمكن أن يحل أحد مكان إسحاق بالنسبة لمقاصد الرب ولا مفر من حتمية ضربة المطرقة على السندان(٤٠).

ويتضح للباحث من خلال هذه النصوص أن ولادة (سارة) لابنها إسحاق هو بداية الصراع الحقيقي بينَ أبناء إبراهيم (عليه السلام) ومن هو أحق بوراثة أبيه وأحق بالبكورية إذ أن (سارة) هي الدافع لبداية هذا الصراع إذ تروي التوراة أنها أمرت إبراهيم (عليه السلام) بطرد هاجر وأبنها لكن إبراهيم (عليه السلام) لم يعجبه أمر سارة ولكن الاله طلب منه تنفيذ أمرها وهذا تصريح واضح من الله بترشيح (اسحق) وريثاً لأبيه وحسب زعم اليهود فأنهم فعلوا كل ما بوسعهم من أجل إبعاد إسماعيل (عليه السلام) عن أبيه وأن الابن البكر هو إسحاق ومن ثم له الحق في وراثة أبيه لأنه ابن سارة الحرة وليس كإسماعيل ابن هاجر الجارية كما يعتقدون.

ويتبين للباحث من خلال استعراض آيات العهد القديم من أن الخطاب الإلهي لإبراهيم تشوبه عدة أمور منها :

أ- إن التوراة أوردت إن إسماعيل بن إبراهيم (عليه السلام) ولم تنعته بأبن هاجر وهذا ما حكاه سفر التكوين [وهذا سجل مواليد إسماعيل بن إبراهيم] (٤١).

ب- أن التوراة لم تصرح أبداً بأن أسماعيل أبن غير شرعي لإبراهيم فسارة زوجة إبراهيم أيقنت أنها لم تنجب نسلاً لإبراهيم , فآثرت على نفسها بان تزوجه بهاجر وهذا ما أيده سفر التكوين [أدخل على جاريتي لعلي ارزق منها بنين , فسمع إبرام لقول ساراي][٤٢] , وكذلك ما ورد في السفر نفسه [ودعا إبرام أسم ابنه الذي ولدته هاجر إسماعيل][٤٣] وبهذا يثبت أن إسماعيل الابن الشرعي لإبرام وهو أحق بوراثة أبيه وهذا ما يبطل ادعاء من يقول بأن إسماعيل لا يصلح أن يكون ابناً لإبراهيم كونه ابن جارية .

ت- إن نبي الله إسماعيل (عليه السلام) هو الابن البكر والشرعي لأبيه واعتماداً على هذا الأساس فأن حقه في ميراث أبيه هو حق شرعي وعادل فنجد هناك تناقض واضح في ادعاء اليهود بعدم أحقية نبي الله إسماعيل (عليه السلام) بالوراثة وهذا ما ذكره (بولس) من أن ابن الجارية لا يرث مع ابن الحرة وهذا الكلام يناقضه النص الوارد في سفر التثنية [أن كان رجل متزوج من امرأتين , يؤثر أحدهما وينفر من الأخرى فولدت كلتاهما له أبناء وكان الابن البكر من انجاب المكروهة , فحين يوزع ميراثه عل أبنائه , لا يحل له أن يقدم ابن الزوجة الأخيرة ليجعله بكره في الميراث على بكره ابن الزوجة المكروهة بل عليه أن يعترف ببكورية ابن المكروهة , ويعطيه نصيب أثنين من كل ما يملك لأنه هو أول مظهر قدرته وله حق البكورية][٤٤].

ويلاحظ الباحث من خلال هذا الاستدلال مدى تلاعب اليهود بنصوص الخطاب الإلهي لصالحهم ونفيهم لبكورية إسماعيل (عليه السلام) ما هو إلا محاولة منهم لإنكار نبوة رسولنا الكريم محمد (صلى الله عليه وسلم) لانهم على علم ويقين بأن النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) سيخرج من نسل إسماعيل (عليه السلام) باعتبار إن العهد الذي قطعه الله مع أبينا إبراهيم (عليه السلام) كان من جهة إسماعيل (عليه السلام) جد العرب لا من جهة إسحاق (عليه السلام) لذلكَ قاموا بتحريف تلكَ النصوص قصد ربط العهد الإلهي بإسحاق (عليه السلام) وهذا نابع من حقدهم الدفين على الإسلام.

الخاتمة:

بعد استعراض نموذج مختار من الخطابات الإلهية للأنبياء والرسل في العهد القديم واختيار خطاب الله لادم وإبراهيم كشاهد بسيط على ما ورد في تلك الأسفار التي حملت في طياتها بعض التناقضات والمغالطات التي لا يرتضي كامل نسبتها إلى الله سبحانه وتعالى , وهذا لا يمنع كل كامل منصف أن يرتاب ويشك في صحة نسبة تلكَ النصوص الحالية إلى نبي الله موسى (عليه السلام) وسلامة تلكَ النصوص

من التحريف والتبديل وهذا ما توقعه نبي الله موسى نفسه إذ ورد في سفر التثنية : [خذوا كتاب التوراة هذا وضعوه بجانب تابوت عهد الرب إلهاكم لأني عارف أنكم بعد موتي تفسدون وتزيغون عن الطريق][٤٥], إذ ذهب اليهود إلى تحريف الكلم عن موضعه سواء كان بالنقص أو الزيادة مطلقين بذلك على الله ما لا يليق بذاته المقدسة من تجسيم وتشبيه ونعته بصفات الخوف والقلق والنقص والظلم مطلقين بذلك الإسقاطات البشرية عليه سبحانه وتعالى فكيف لهم أن يجعلوا الذات الإلهية كالذات الإنسانية , فتنزيه الله واجب على الموحدين ولكن أين هؤلاء من تنزيه الاله العظيم ؟ ولا يخفى علينا الدور الذي لعبه مفسرو وشراح العهد القديم فلقد كان لهم دوراً أساسياً ومحاولات عديدة في صرف المعنى عن دلالاته الحقيقية وجر الألفاظ إلى معاني أخرى لا تمت للحقيقة بصلة وتكون بعيدة كل البعد عن الموضوعية في طرح المواضيع مبتغين بذلك تبرئة النص من التجسيم والمشابهة وإبعاد أصابع الاتهام عن أساليب اليهود العدوانية فهذا هو ديدن تلك النصوص التي وردت في كتابهم المقدس وتفسيراتهم فتعالى الله عما يصفون علواً كبيرا .

قائمة المصادر

- القرآن الكريم .
- الكتاب المقدس (العهد القديم) .

(١) سفر المزامير : ١٢ : ٦ .

(٢) سفر المزامير : ١١٩ : ١٤٠ .

(٣) سفر الأمثال : ٣٠ : ٥ .

(٤) سفر التثنية : ٦ : ٤ – ٥ .

(٥) سفر أشعيا : ٤٥ : ١٥ .

(٦) سفر الخروج : ٣٣ : ١٩ – ٢٠ .

(٧) سفر أخبار الأيام الثاني : ٦ : ١٤ .

(٨) سفر التكوين : ٢ : ١٦ – ١٧ .

(٩) يُنظر : التفسير الكامل للكتاب المقدس , متى هنري , مطبوعات أنجلز – القاهرة , ط١ , ٢٠١١م , ١ / ١٩ – ٢٠ .

(١٠) يُنظر : التفسير الكامل للكتاب المقدس , متى هنري , ١ / ١٩ – ٢٠ .

(١١) يُنظر : الموسوعة الكنسية لتفسير العهد القديم , تفسير سفر التكوين , مجموعة من كهنة وخدام الكنيسة , منشورات كنيسة مار مرقص القبطية الأرثوذوكسية , مصر , ط١ , ٢٠٠٦م , ١ / ٣٧.

(١٢) سفر التكوين : ٣ : ٣ – ٤ .

(١٣) سفر التكوين : ١ : ٢٨ – ٢٩ .

(١٤) سفر التكوين : ٣ : ٨ – ١٤ .

(١٥) السنن القويم في تفسير العهد القديم , شرح سفر التكوين , وليم مارش , مجمع الكنائس في الشرق الأدنى , بيروت , ط١ , ١٩٧٣م , ٣٩ – ٤٠ .

(١٦) يُنظر : المصدر نفسه , ٤٠ .

(١٧) يُنظر : المصدر نفسه , ٤٠ .

(١٨) يُنظر : الموسوعة الكنسية لتفسير العهد القديم , تفسير سفر التكوين , ط١ , ١ / ٤٢

(١٩) الموسوعة الكنسية لتفسير العهد القديم , تفسير سفر التكوين , ط١ , ١ / ٤٢

(٢٠) يُنظر : تفسير سفر التكوين , أنطونيوس فكري , ٥٦ .

(٢١) سفر التكوين : ٣ : ١٧ – ٢٤ .

(٢٢) يُنظر : تفسير الكتاب المقدس , سفر التكوين , نجيب جرجس , منشورات بيت مدارس الأحد القطبي , القاهرة , ط٤ , ٢٠٠١ , ٨٠ , ويُنظر : الموسوعة الكنسية لتفسير العهد القديم , تفسير سفر التكوين , ط١ , ١ / ٤٧ .

(٢٣) يُنظر : تفسير العهد القديم وتطبيقه , جاريس كروسلي , ترجمة : بخيت متى , الرابطة الإنجيلية في الشرق الأوسط , ١ / ٣٤ .

(٢٤) شجرة المعرفة : (شجرة الخير والشر) : وهي الشجرة الموجودة في الجنة والمتعارف على تسميتها بالشجرة المنهى عنها والتي حرم الله على آدم وحواء الأكل من ثمارها وقد أكل آدم و وحواء منها رغم كونها محرمة مما أدى إلى طردهم من الجنة , يُنظر : سفر التكوين : ٢ – ٩ , ويُنظر : دائرة المعارف الكتابية , وليم وهبة , ط٢ , ٥٠٧٤ .

(٢٥) شجرة الحياة : وهي شجرة وسط الجنة , ثمرها يمنح الإنسان حياة خالدة , كانت رائحتها ازكى من كل رائحة وان أوراقها وأزهارها وخشبها لا تيبس أبداً وان ثمرها أشبه بالبلح عندما أخطأ آدم وحواء وأكلا من شجرة معرفة الخير والشر طردهما الرب من الجنة لئلا يأكلا منها فيعيشان إلى الأبد , يُنظر : قاموس الكتاب المقدس , نخبة من العلماء اللاهوتيين , ٥٠٧ , مادة (شجرة) , ويُنظر : دائرة المعارف الكتابية , وليم وهبة , ط٢ , ٤ / ٥٠٦ .

(٢٦) يُنظر : التفسير الكامل للكتاب المقدس , متى هنري , ط١ , ١ / ٣٠ .

(٢٧) سفر التكوين : ١ : ٢٦ .

(٢٨) سفر التكوين : ١١ : ٧ .

(٢٩) يُنظر : السنن القويم في تفسير أسفار العهد القديم , شرح سفر التكوين , وليم مارش , ط١ , ٢٣

(٣٠) تفسير سفر التكوين , أنطونيوس فكري , منشورات كنيسة السيدة العذراء , الفجالة – القاهرة , ٦٧ .

(٣١) تفسير سفر التكوين , تادرس يعقوب , منشورات كنيسة الشهيد مار جرجس , مطبعة الانباروبس , القاهرة , ط١ , ١٩٨٣م , ٧٣ .

(٣٢) الكروبيم : وجمعها في العبرية (كروبيم) وفي العربية (كروبون) وهم ملائكة يرسلون من قبل الله أو يقيمون في حضرته تعالى , أقامهم الله على أبواب جنة عدن عندما طرد آدم وحواء منها ويقال عنهم أنهم ذوو جناحين وكانت الكروبيم تحت عرش الله يحملونه ويقومون بحراسة تابوت العهد , يُنظر : قاموس الكتاب المقدس , نخبة من العلماء اللاهوتيين , ٧٧٩ , مادة (كريت) .

(٣٣) يُنظر : التفسير الكامل للكتاب المقدس , متى هنري , ط١ , ١ / ٣٠ .

(٣٤) سفر حزقيال : ١٨ : ٢٠ .

(٣٥) بئر السبع : كلمة عبرية معناها (بئر السبعة أو بئر القسم) سميت هكذا بسبب إعطاء إبراهيم سبع نعاج لابي مالك شهادة على حفره إياها وهناكَ مكث إبراهيم مدة طويلة ومن بعده رجع إسحاق إلى

نفس الموضع فجدد البئر واطلق أسم البئر على المدينة التي نشأت حولها وهي تبعد عن حبرون نحو ثمانية وعشرون ميلاً إلى الجهة الجنوبية , يُنظر : قاموس الكتاب المقدس , نخبة من العلماء اللاهوتيين , ١٥٠ , مادة (بئر) .

(٣٦) سفر التكوين : ٢١ : ٩ : ١٦ .

(٣٧) السنن القويم في تفسير أسفار العهد القديم , شرح سفر التكوين , وليم مارش , ط١ , ١٠٨ .

(٣٨) تفسير سفر التكوين , أنطونيوس فكري , ٢٧٧ – ٢٧٨ .

(٣٩) الرسالة إلى مؤمنين غلاطية : ٤ : ٣٠ – ٣١ .

(٤٠) يُنظر : التفسير الحديث للكتاب المقدس , العهد القديم , سفر التكوين , ديريك كندر , ترجمة : بخيت متى , دار الثقافة , مصر , ط١ , ١٥٣ .

(٤١) سفر التكوين : ٢٥ : ١٢ .

(٤٢) سفر التكوين : ١٦ : ١ – ٤ .

(٤٣) سفر التكوين : ١٦ : ١٥ – ١٦ .

(٤٤) سفر التثنية : ٢١ : ١٥ – ١٧ .

(٤٥) سفر التثنية : ٣١ : ٢٤ – ٢٩ .